ثقافة المقاومة من سياتل إلى فلسطين

28-8-2003

وإن المهم في حركات الرفض - أولئك الذين يشنون حملة لعدالة إقتصادية عالمية، وتضامنا مع فلسطين وضد الحرب على العراق- هو صياغة تحدي حقيقي لسياسات بوش وعصابته

إن إدارة بوش تشيني الحالية هي أكثر الإدارات الأمريكية يمينية في تاريخ الولايات المتحدة. وصل نظام بوش إلى السلطة بطريقة احتيالية، وبقرار قضائي. واعتُبر انتخابه غير شرعي من قبل شريحة واسعة من السياسيين تمتد من الديموقراطيين الأحرار إلى أقصى اليسار. وقد صرفت الحكومة الجديدة شهورها الأولى في محاولة إقناع الرأي العام المحلي عندما وجد رئيسها (بوش) صعوبة لوضع سياسات واضحة ترتبط باسمه. الإستقطاعات الضريبية للأغنياء، إبطال بعض المعاهدات الدولية والسياسة الخارجية الإنعزالية شكلت أبرز نقاط جدول أعماله.

وقد قيل الكثير منذ ذلك الحين حول الموقف المتغيّر للإمبريالية الأمريكية بعد هجمات سبتمبر 2001. لكن الإتجاهات والحركات والتغيرات كانت جارية في العالم، إذ أن هناك تغير في المواقف ضمن مجموعات المصالح الغنية الأمريكية، بالإستناد لموقع أصحابها العالمي كقوة استعمارية قيادية في العالم.

وكانت الولايات المتحدة تحت حكم كارتر ثم ريغان، قادرة على إجبار الإتحاد السوفيتي لإفلاس نفسه بإنفاق مصادره في سباق التسلح، في الوقت الذي عرف فيه الإقتصاد الأمريكي مردودية كبيرة، بينما بلغ التدخل أوجه في الحروب بالوكالة في أمريكا اللاتينية (حيث استُعملت الزمر العسكرية في القمع الدامي بشكل شنيع) وآسيا الوسطى (حيث تم الإحتماء بالظاهرة الإسلامية القوميين واليساريين). ورأى الأمريكان في انهيار الكتلة السوفيتية تحت ضغط الهجوم الرأسمالي وبيروقراطيته بمثابة "نصر" للرأسمالية الدولية. وقد عزل "النصر" الأمريكي في حرب الخليج الثانية اليسار أكثر في "النظام العالمي الجديد" لما بعد التفكك السوفيتي. هذه "الإنتصارات" مع الرواج الضخم لأسواق التقنية الجديدة، رشح عقد التسعينيات لأن يشهد ازدهار قصير للرأسمالية الأمريكية. وسُوق لنظرية "نهاية التأريخ" وأُعلن أن "ليس هناك بديل" من طرف الرأسمالية بدون تحدٍ ولا منازع!.

وحاول الإستعماريون الجدد خلق مرونة أكبر في مواجهة القيود على حركة رأسمالهم في معركة صعبة، وهذا يعني شن هجوم على مستويات معيشة السكان في العالم في وقت أعلن فيه الأخصائيون الرأسماليون بأن الإقتصاد ما سبق له أن عرف مستوى الرخاء والتحسم الذي وصل إليه.

إلا أن المقاومة بدأت، وتحرك أولئك الذين كانوا على الهامش في "التسعينيات الصاخبة". حيث ردت حركة "زباتا" (الفلاحون المكسيكيون الثائرون) سريعا على اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية (NAFTA) والتي تضم أمريكا، كندا والمكسيك، شاهرة السلاح معلنة حكم الإعدام على كبار الإقطاعيين. ثم الإضراب الضخم والمثير للعمال في فرنسا في خريف عام 1995. أما في الولايات المتحدة، فقد أظهر كفاح اتحاد سائقي الشاحنات ضدّ يونايتد بارسيل سيرفس (UPS) بأنه بالإمكان المحاربة والظفر بشيء حتى في قلب الكيان الإستعماري. في 1998 أُطيح برجل واشنطن القوي سوهارتو. وتشكلت العديد من شبكات المناطق المحليّة والدولية والإقليمية للتعريف بالمخاوف التي تؤرقها، لكن "النخبة" أهملت كل هذا في تجمعاتها السياسية، في القمم، في مجالس المدراء وفي المؤتمرات..، ومع نهاية التسعينيات كان السؤال المطروح بإلحاح في الأوساط الشعبية: "هل هذا حقا كل ما نستطيع تحقيقه أو على الأقل تمنيه؟". وجاء الجواب عن طريق مظاهرات سياتل والصعود الملحوظ لحركة "العدالة الإجتماعية" العالمية التي جمعت النشطاء من الجانبين : البلدان الإستعمارية والبلدان المضطهدة. والجواب كان وبقوة " لا! ". وتزامن هذا الوعي الدولي الجديد مع إعادة ظهور المقاومة البطولية لـ "النظام العالمي الجديد" من قبل الشعب الفلسطيني، حيث رفض التخلي عن أمل العيش في الكرامة بدلا من معسكرات اتفاقية كامب ديفيد.

وقد قلبت الإنتفاضة الفلسطينيّة والحركة الإجتماعية في سياتل، المعادلة السياسية والإقتصادية العالمية المفروضة، وانتخب الرئيس بوش في وقت بدأ الكثير حول العالم يشككون في "السلام الأمريكي" وعندما نجح الإصرار الفلسطيني والحركة الإجتماعية العالمية في وضع قضاياهم على قائمة الأولويات الملحة للمرحلة. وفي مواجهة المقاومة المتزايدة عالميا والكساد الإقتصادي في عقر الدار، وجدت الطبقة الأمريكية الحاكمة تحت الضغط المتزايد، وظهرت ملامح القلق والإضطراب على الإستعماريين الجدد. وتمكن اليمين من الوصول إلى الحكم بعد سلسلة من الإنتخابات في أوروبا. وأصبح من الواضح أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتعامل مع العالم بالطريقه نفسها التي تعاملت بها في السنوات الأولى من عقد التسعينيات. واستمرت أشكال المقاومة، في منطقة "الشرق الأوسط"، آسيا الوسطى، أفريقيا، بينما غرقت أمريكا اللاتينية في مستنقع المشاكل المالية، ثم جاء الحادي العشر من سبتمبر/أيلول. ولم تغير هذه الأخيرة من وجهة نظر الإمبريالية الأمريكية، أو بالأحرى وسعت من تأثيرها وأضفت عليها نوعا من الشرعية، إذ أن العالم كان قد تغير قبل 10 سنوات. واغتنمت الإمبريالية الأمريكية الفرصة بلهفة بحلول 11 سبتمبر. و بلا شك أطلق 11 سبتمبر/أيلول العنان لتوسيع سلطات الشرطة في الولايات المتحدة. واستغل بوش ونائبه تشيني (الحاكم الفعلي) والمجموعات التي يمثلونها الجو المتأزم وتزايد الهلع الذي ساد عشية الهجمات لمواصلة سلسلة من المبادرات اليمينية المتشددة داخليا. بينما قادت هجمات الحادي العشر من سبتمبر/أيلول مباشرة إلى غزو أفغانستان لإسقاط حركة طالبان وأغلقت معسكرات القاعدة، لكن الجائزة الحقيقية للطبقة الأمريكية الحاكمة كان العراق - النفط العراقي- والرسالة وصلت باحتلاله.

ولم ينتخب الأمريكان على السياسات "الأحادية الجانب" المؤيدة للتدخل الأمريكي الحالي، وقد انشغل المحافظون الجدد عبر مشروعهم "قرن أمريكي جديد" بترويج مثل هذه السياسات قبل عقد كامل تقريبا من هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001ـ ودفعت الأحداث بأفكارهم إلى الواجهة. وإن نتائج مثل هذه السياسات كانت قاتلة وفي كل الأوقات، في السلام والحرب. وإن المهم في حركات الرفض في الفترة الأخيرة - أولئك الذين يشنون حملة لعدالة إقتصادية عالمية، وتضامنا مع فلسطين وضد الحرب على العراق- هو صياغة تحدي حقيقي لسياسات بوش وعصابته، ولا شيء يهدد نظام بوش وليس فقط سياساته اليمينية أكثر تأثيرا وفعالية من إشاعة ثقافة المقاومة : بشقيها، الوعي الإجتماعي من خلال حركة سياتل وما تلاها، ومواجهة إرادة الإغتصاب والإذلال كما هو الحال في فلسطين.